الرقة واللطف في شعر نصيب بن رباح

The Tenderness and Grace (or Gentleness) in the Poetry of Nasib ibn Rabah

م.د. عباس العيبي فليح

Lec. Dr. Abbas Al-Aibi Flayeh

جامعة سامراء/ كلية الآداب

University of Samarra / College of Arts

abbis.al.fl@uosamarra.edu.iq

الكلمات المفتاحية: رقة، لطف، شعر، نصيب بن رباح.

Keywords: Delicacy- Gentleness- Nusayb ibn Rabah

الملخص

تهـدف الدراسـة إلـى تسـليط الضـوء علـى لفظتـي (الرقـة واللطـف) فـي شـعر نصـيب بـن ربـاح، وكيفيـة اسـتعمال اللفظتـين فـي نتاجـه الشـعري. إذ عـاش الشـاعر فـي بيئـة شـبه بدويـة تحـتفظ بأصـول المـوروث القبلـي منـذ العصـر الجـاهلي، وعلـى الـرغم مـن لـون بشـرة الشـاعر السـوداء إذ لـم يكـن مرغوبًـا فيهـا آنـذاك، فـإن كـل ذلـك لـم يـؤثر فـي نتاجـه الشـعري، ومما يلفـت النظـر هـو حضـور اللفظتـين ودلالاتهمـا؛ فبمهارتـه وحكمتـه اسـتطاع أن يخـرج مـن جـو القبليـة والعنصـرية إلـى فضـاء الرقـة واللطـف فـي تصـوير ممدوحـه ونفسـه ومـن يتغـزل بهـا، ويـدل ذلـك علـى براعتـه الشـعرية؛ حتـى لا يكـاد القـارئ لشـعره أن يميّـز لونـه وانعكاسـه علـى شـعره، لـولا أنـه أشـار فـي بعـض قصـائده إلـى لونـه، ولـم يكتـفِ الشـاعر بهـذا، بـل إنـه كـان مـن المقـرَّبين للحكـام الأمـويين، بـل ومنادِمًـا لهـم، لمـا يحملـه مـن ثقافـة وثـراء شـعري ورجاحـة عقـل، وقـد اعتمـدت الدراسـة المـنهج التحليلـي فـي إيـراد الـنص الشـعري، ومـن ثـم تحليلـه للكشـف عـن جمالياتـه ومـا يحمل من مضامين أدبية امتاز بها الشاعر.

Abstract

This study aims to investigate the nuances of the terms "delicacy" (Al-Riqqa) and "kindness" (Al-Lutf) in the poetry of Nusayb ibn Rabah, exploring their stylistic and contextual employment within his body of work. Despite living in a semi-bedouin environment that strictly adhered to ancestral tribal legacies dating back to the Pre-Islamic era, and notwithstanding the social prejudices associated with his skin color at the time, the poet's creative output remained remarkably unhindered.

A striking feature of his poetry is the pervasive presence of these two concepts and their thematic implications. Through artistic skill and wisdom, Ibn Rabah transcended the constraints of tribalism and racial bias, navigating instead toward a space characterized by tenderness and grace in his depictions of his patrons, himself, and his beloveds. This shift underscores a profound poetic prowess; indeed, a reader might hardly discern the poet's racial identity through his verses—save for explicit autobiographical references—due to the sheer refinement of his style. Furthermore, the poet's intellectual depth, poetic wealth, and sobriety of mind earned him a position as a close companion and confidant to the Umayyad caliphs.

Adopting an analytical methodology, this study presents selected poetic texts and subjects them to rigorous critique to uncover their aesthetic dimensions and the unique literary themes that define Ibn Rabah's legacy.

المقدمة

تُعد الرقة واللطف في الشعر العربي ما قبل الإسلام (العصر الجاهلي) سمةً ضعيفةً مقارنةً بالأغراض الشعرية والمفاهيم الأخرى التي سادت آنذاك؛ نتيجةً لطبيعة البيئة القاسية والثقافة البدوية الغالبة على المجتمع، ومع بزوغ نور الإسلام وحلول عصر جديد، تغيرت المفاهيم واتضحت الرؤيا في البيئة العربية، وكلما تقدم الزمن أخذ المجتمع العربي بالانصهار في الحياة المدنية، وقد بدا ذلك جليًا في العصر الأموي، الذي شهد نقلة نوعية عما كان عليه المجتمع سابقًا؛ بفضل الثقافات والحضارات التي دخلت تحت لواء الإسلام —كالروم والفرس وغيرهما— مما انعكس على الأدب العربي بصورة ملحوظة، ويظهر هذا التطور جليًا في شعر نصيب بن رباح، الذي جسّد في قصائده الصورة الإنسانية التي تمثل الشعور الوجداني من جهة، وطبيعة البشر السوية من جهة أخرى، وقد مال الشاعر نصيب بن رباح إلى هذه الصورة الإنسانية التي تحمل في طيات قوافيها الرقة واللطف، ليعكس صورة جديدة من صور الحياة العربية التي كانت تتسم فيما مضى بالبداوة والغلظة؛ فقدم في نتاجه الشعري صورة مشرقة لثقافة جديدة تتمتع بروح الإنسانية والعاطفة الصادقة. ويأتي هذا البحث ليسلط الضوء على هذه الظاهرة في شعره؛ ليعكس مدى تطور المجتمع العربي آنذاك، وانسجامه مع الحضارات الوافدة إليه.

مشكلة البحث

تتبلور مشكلة البحث في محاولة الوقوف على مظاهر الرقة واللطف في شعر "نصيب بن رباح"، ودراستها دراسةً عميقةً للكشف عن مدى حضورها في نتاجه الأدبي، والدور الذي أدته في عكس صورة البيئة العربية الجديدة. وهذا ما يدعو إلى التساؤل الجوهري حول مدى كثافة ألفاظ الرقة واللطف في ديوان الشاعر، وأثر ذلك في سلوكه وطبيعة عيشه.

ومن هذا التساؤل الرئيس، تتفرع عدة أسئلة بحثية توضح أبعاد الدراسة ومحتواها:

1–ما المراد بمفهومَي "الرقة" و"اللطف" لغةً واصطلاحاً؟

2–كيف تجلى مفهوم الرقة واللطف في النتاج الشعري للشاعر؟

3-إلى أي مدى تمكن الشاعر من تجسيد قيم الرقة واللطف في تفاصيل حياته اليومية؟

4-ما أثر ظروف حياته الشخصية — المتمثلة في سواد لونه ومعاناته مع الرق — في تكوين أسلوبه الشعري وبناء شخصيته الإنسانية؟

أهداف البحث:

1-الوقوف على مفهومي "الرقة واللطف": بيان مدلولهما اللغوي والاصطلاحي، وتتبع السياقات التي وردا فيها، ومدى حضورهما في تجربة الشاعر الشعورية.

2-بيان جماليات الرقة واللطف: استجلاء مدى تسخير الشاعر لهذين المفهومين في نتاجه الأدبي، مع تحليل الخصائص الفنية والأسلوبية المرتبطة بهما.

3-تجاوز العوائق الذاتية والاجتماعية: تسليط الضوء على قدرة الشاعر على تجاوز لون بشرته ووضعه الاجتماعي، وتحقيق الانسجام مع مجتمعه كفردٍ يتوق الحكام والأمراء لمنادمته.

4-رصد التحولات الحضارية: عكس صورة حية للحياة التي عاشها المجتمع العربي آنذاك، عن طريق تتبع المتغيرات الثقافية والاجتماعية التي واكبت تلك الحقبة.

الدراسات السابقة:

بنية القصيدة في شعر نصيب بن رباح

لغة الحزن والغربة في شعر نصيب بن رباح

البنيوية التكوينية في العصر الأموي: نصيب بن رباح أنموذجًا: الرؤية والواقع والبعد الاجتماعي

البعد التَّداولي للإشاريَّات في الخطاب الشعر (شعر نُصيب بن رَبَاح أنموذجًا)

المبحث الأول: مهاد نظري.

المطلب الأول:

-المعنى والدلالة.

اللَّطف والرِّقة من أصول فطرة الإنسان؛ إذ إنهما من كوامن النفس الإنسانية. ففيهما غزارة عاطفية تتولد مع الذات إذ كانت. لكن قد يُعكِّرُها أحيانًا المجتمع الذي يقسو على

تلـك الـنفس البشـرية، فتنـتج انعكاسـات سـلبية. لـذا، قـد يصـدر مـن الـنفس البشـرية الوحشـية والغـل فـي اللفـظ والفعـل، وطبيعـة الإنسـان: كـائن لطيـف رقيـق، ميَّـال للهـدوء والسـكينة، يعمـل علـى إيجـاد الجـو المناسـب الـذي يحقـق لـه صـفاء العـيش. خلاصـة المعنـى: عنـد النظـر إلـى معنـى اللطـف والرقـة، نجـد أنهمـا يخلصـان إلـى التعامـل مـع الآخـر بضـوابط الفطرة الإنسانية.

المعنى اللغوي والاصطلاحي:

عنـد النظـر إلـى المعنـى اللغـوي والاصـطلاحي، نجـد أن المعنـى اللغـوي للفظـين ينصـرف إلـى الآتـي: اللُّطـف: هـو "الـذي يوصـل إليـك أربـك فـي رفـق". اللُّطْـفُ مـن الله تعـالى: التوفيـق والعصـمة، لَطَـف فـلان يَلْطُـف إذا رَفَـق لُطْفـاً، ويقـال: "لَطَـف الله لـك"؛ أي أوصـل إليـك مـا تُحِـب برفـق. اللَّطِيـفُ مـن الكـلام: مـا غمُـض معنـاه وخفِـي. (ابـن منظـور، لسـان العرب، مادة لطف) لَطَفَ لُطْفاً: ((رفَقَ ودنا)). (الفيروزآبادي، 2005، 835)

أمـا الرقـة: ((الرَّقِيـقُ: نقـيض الغلـيظ والثَّخِـينِ. والرِّقَّـةُ: ضـدُّ الغِلَـظ. رَقَّ يَـرِقُّ رِقَّـةً فهـو رَقِيـقٌ ورُقـاقٌ وأَرَقَّـه ورَقَّقـه. والـرِّقُّ أيضـاً: الشـيء الرقيـق، ويقـال لـلأرض اللينـة رِقٌّ)) ((ابـن منظور، مادة رق).

أمـا مـن ناحيـة الكـلام، فإنهـا تعنـي: ((ورَقَّـقَ كلامَـه: لطَّفـه، وحسَّـنه، وزيَّنـه)) (المعجـم الوسـيط، 2004، 366) ((وقـد رَقّ الشـيء يـرِق بالكسـر رِقَّـةً، وأرَقَّـهُ غيـره ورَقَّقَـهُ ترقيقـاً. وترقيـقُ الكـلام تحسـينه)) (الـرازي، 1986، 106) وتعـد الرقـة: ((مصـدر الرقيـق فـي كـل شـيء)) (الفراهيـدي، بـاب الألـف مـع الـراء، رق). وكـي لا يخـتلط مفهـوم الرقـة بالرحمـة يجـب أن يُفَـرَّق بـين اللفظـين؛ إذ إنَّ: ((الفـرق بـين الرقـة والرحمـة أنَّ الرقـة والغلظـة يكونـان فـي القلـب وغيـره خِلقـة، والرحمـة فعـل الـراحم، والنـاس يقولـون: رَقَّ عليـه فَرَحِمَـه، يجعلـون الرقـة سـبب الرحمـة)) (العسـكري، (د.ت)، 196)، فـالرقة تكـون فـي القلـب، وهـذا مـا يَظهـر عـن طريـق اللسـان فتسـتقيم الألفـاظ ويطيـب الحـديث، وهـذا معنـى دقيـق فـي بيـان مـدلول لفـظ (الرقـة). أمـا اللفـظ فهـو: ((هُـوَ البـرُّ وجميـلُ الفِعْـل، مـن قولـك: فـلان يَبَرُّنـي ويَلْطُفُنـي، ويُسَـمَّى الله تعـالى لطيفًـا مـن هـذا الوجـه أيضًـا؛ لأنـه يواصِـلُ نِعَمَـه إلـى عبـاده)) (العسكري، (د.ت)، 218).

أمـا اصـطلاحًا، ففيهـا كـلام واسـع، إذ وقـف عنـد اللفظـين كثيـر مـن النقـاد العـرب وغيـرهم مـن القـدماء والمحـدثين؛ وذلـك لأهميـة اللفظـين وسِـعَةِ المـدلول لهمـا، ولمـا يمـثلان مـن معـانٍ واسـعة تـدخل فـي عـدة مواضـع؛ فهـي فـي اللفـظ أحيانًـا، وأحيانًـا تكـون فـي التعامـل، ((وَرَدَ الظَّـرْف يكـون فـي صَـبَاحَة الوجـه ورشـاقة القَـدِّ، ونظافـة الجسـم والثـوب، وبلاغـة اللسـان وعذوبـة المنطـق، وطِيـب الرائحـة، والتقـزز مـن الأقـذار والأفعـال المسـتهجنة، ويكـون فـي خفـة الحركـة وقـوة الـذهن، ومَلاحـة الفكاهـة والمـزاح، ويكـون فـي الكـرم والجـود والعفـو، وغيـر ذلـك مـن الخصـال، وكـأنَّ الظَّـرْف مـأخوذ مـن الظَّـرْف الـذي هـو الوعـاء، فكأنـه وعـاء لكـل لطيـف)) (ابـن الجـوزي، 1997، 42)، فـابن الجـوزي فـي هـذا المقـام يَتَشَـعَّبُ فـي المـراد مـن اللفظـين، فـلا يَحْصُـرُهما فـي اللفـظ، بـل فـي الأشـياء الماديـة والمعنويـة، وكأنـه يجعـل مـن اللفظـين مُنْطَلَقًـا واسـعًا يكـون السـبيل الأوضـح للفـرد إن أراد التفرد بالخصـال الحميـدة، فجعلـه كالوعـاء لكـل لطيـف. أمـا أبـو تمـام (232هـ) فقـد حصـر الرقـة فـي اللفـظ، كمـا جـاء فـي وصـيته للبحتـري: ((فـإنْ أردتَّ النسـيبَ فاجْعَـلِ اللَّفْـظَ رقيقًـا، والمعنـى رَشـيقًا، وأَكْثِـرْ فيـه مِـن بَيـانِ الصَّـبابةِ، وتوجُّـعِ الكآبـةِ، وقَلَـقِ الأَشْـواقِ، ولَوْعَـةِ الفِـراقِ)) (القيروانـي، 1972، 2\214)، عنـد النظـر إلـى الـنص، نجـد مـدار الاهتمـام بـاللفظ ومـا يـؤول إليـه. ويمكـن القـول إنمـا جـاء حصـره بـاللفظ كونـه كـان أديبًـا، فصُـبَّ الاهتمـام علـى اللفـظ مـن جهـة، ومـن جهـة أخـرى كـون الموصَـى لـه أديبًـا، وهـو البُحتـري؛ فكان لزامًا أن يُحصر المعنى في اللفظ.

أمـا عنـد النقـاد المُحـدَثين، فـالمعنى بـدأ يتوسـع فيعطـي دلالات كثيـرة، كـون المحـدثين مـالوا بـاللفظَين إلـى علـم الجمـال. وعلـم الجمـال واسـع وفلسـفي، لـذا خلعـوا عليـه مـن الفلسـفة الحديثـة مـا خلعـوا عليـه. فقـد عـرَّف الـدكتور اليـافي الرقـة بأنهـا: ((مقولـة فنيـة تشـتمل علـى تنويعـات متعـددة متقاربـة، يسـاعد ثـراء اللغـة العربيـة علـى تبينهـا والإلمـاع بـبعض الفـروق بينهـا، كالرشـاقة، واللطافـة، والملاحـة، والسـهولة، واليسـر، والوداعـة، والسلاسـة، والدماثـة، والانسـجام، والظَّـرْف، ومـا إلـى ذلـك، وقـد يسـتعمل لفـظ مكـان غيـره، فالرقـة عنـدنا شـاملة لهـذه التلوينـات)) (اليـافي، 1999، 73)، وعنـد النظـر لتعريـف د. عبـد الكـريم اليـافي، نَلحَـظ أنـه وإن اتسـم بالحداثـة، إلا أنـه لـم يخـرج كثيـرًا عـن تعريـف النقـاد العـرب القـدماء. فهـذا التعريـف لا يبتعـد كثيـرًا عـن تعريـف ابـن الجـوزي (597هـ)؛ فالمشـتركات كثيـرة وإن

اختلفت الألفاظ على بُعد الزمن. وهذا بَدا واضحًا عند النقاد العرب المحدثين الذين لم ينسلخوا عن التراث العربي الأصيل.

أما النقاد الغربيون، فلهم فلسفتهم في اللفظَين. وهو نابع من ثقافتهم الغربية المحيطة بهم، فغالبًا ما يميلون إلى الفردية في بيان المعنى. فاللُّطْف عندهم يرمز للجمال، كما يعبِّرون: ((فالجميل إذًا تعاطُف بيننا وبين قوة خفية، والقبح نفور، والرائع خليط من الاستلطاف والنفور، واللطيف تعاطف ممزوج بالحب)) (لا لو شارل، 2010، 63). هنا الفردية طاغية في المعنى المراد للفظ، ومصوِّرة للعاطفة أكثر من غيرها؛ إذْ إن النظرة إلى اللفظ كانت مأخوذة من الإحساس بالعاطفة للآخر، أما إذا امتزجت اللفظتان (اللُّطْف مع الرقة)، فالمعنى يبدو أوضح من أن يكون لانفراد اللفظة عن أختها الأخرى. فباجتماعهما يعطيان دلالة أوسع، فيخرج المعنى من الفردية الإنسانية إلى مدلولات أوسع وأشمل تخطى محيط الإنسان، فتنضم إليها أشياء تتصل بالنفس الإنسانية. فهي في علم الجمال الغربي الحديث توحي بأن: ((اللطيف والأنيق، والرفيق، اللطيف، والأنيق، والرقيق، والمتأنق، توحي على العكس بتعاطف فيه حماية لكائناتٍ ولأشياء صغيرة وضعيفة، أي يوحي بتضامن اجتماعي وعالمي قائم لمصلحتنا على أساس تنظيم سلمي يعرف تلقائيًا كيف يجعلنا نقبله عندما يلاطف حياتنا الوجدانية، ومن هنا يأتينا بزيادة لطيفة في شعورنا بذاتنا)) (لا لو شارل، 2010، 105).

مع اتساع المعنى في فهم الجمال الغربي، إلا أنه لا يخرج كثيرًا من كونه يلامس العاطفة الإنسانية؛ فهو شعوري وجداني مداره النفس الإنسانية.

المطلب الثاني:

-إحاطة بالشاعر وأخباره.

نصيب بن رباح أبو محجن، شاعر من شعراء العصر الأموي، ذاع صيته في متون المصادر العربية؛ مما له من قيمة أدبية تستحق الوقوف عندها. فأخباره متناثرة في طيات المؤلفات، وهذه إشارة إلى المكانة الأدبية التي كان يتمتع بها الشاعر آنذاك؛ مع مزاحمة الكم الهائل من الشعراء في ذلك العصر، فأكثر شعراء العصر الأموي من الفحول؛ كالفرزدق، وجرير، والأخطل، إلخ.

فنصـيب بـن ربـاح، مـولى عبـد العزيـز بـن مـروان، شـاعر فحـل، مقـدّم فـي النسـيب والمـدائح. "كـان عبـدًا أسـودًا لراشـد بـن عبـد العـزى مـن كنانـة، مـن سـكان البادية، وأنشـد أبياتًـا بـين يـدي عبـد العزيـز بـن مـروان، فاشـتراه وأعتقـه، وكـان يتغـزل بـأم بكـر زينـب بنـت صـفوان، وهـي كنانيـة، وفـي بعـض الروايـات (زنجيـة)... لـه شُـهرةٌ ذائعـة، وأخبـار مـع عبـد العزيـز بـن مـروان، وسـليمان بـن عبـد الملـك، والفـرزدق، وغيـرهم، وكـان يُعـدّ مـع جريـر وكثيـر عـزة. وسُئل عنـه جريـر، فقـال: "أشـعر أهـل جلدتـه". وتنسّـك فـي أواخـر عمـره، وكـان لـه بنـات مـن لونـه، امتنـع عـن تـزويجهن للمـوالي ولـم يتـزوجهن العـرب. فقيـل لـه: مـا حـالُ بناتـك؟ فقـال: "صَـببتُ علـيهن مـن جِلـدي (بكسـر الجـيم) فَكَسَـدنَ علـيّ!". قـال الثعـالبي: وصِـرنَ مَـثَلاً للبنـت يَضـنّ بهـا أبوهـا فـلا يرضـى مَـن يخطبهـا ولا يرغـب فيهـا مَـن يرضـاه لهـا)) (الزركلـي، 2002، 32)، إن شـهادة جريـر لـه بأنـه "أشـعر أهـل جلدتـه" لـم تكـن محـل صـدفة، فجريـر لـم يكـن متعاطفًـا معـه، بـل كانـت شـهادة تـنمّ عـن مـدى فحولـة نُصـيب بـن ربـاح وفصـاحة لسـانه وحسـن وصـفه؛ إذ إن معـاذ صـاحب الهـروي قـال: ((دخلـت مسـجد الكوفـة، فرأيـت رجـلاً لـم أرَ قـط أنقـى ثيابًـا منـه، ولا أشـد سـوادًا منـه. فقلـت: مـن أنـت؟ قـال: نُصـيب. قلـت: أخبرنـي عنـك وعـن أصـحابك. فقـال: جميـل إمامنـا، وعُمـر أوصـفنا لربـا الحِجَـال، وكثيـر أبكانـا علـى الأطـلال والـدِّمَن، وقـد قلـتُ مـا سـمعتُ". قلـت: فـإن النـاس يزعمـون أنـك لا تحسـن أن تَهجُـو. قـال: أفـأقرّوا لـي أنـي أحسـن المـدح؟ قلـت: بلـى، قـال: ولكنـي رأيـت النـاس رجلـين: رجـلاً لـم أسـأله، فـلا ينبغـي أن أهجـوه، ورجـلاً سـألته فمنعنـي، فكانـت نفسـي أحـق بالهجـا إذ سَـوَّلت لـي أن أطلـب منـه)) (المرتضـى 1954، 61) المُلاحَـظ فـي الخبـر أن نصـيب بـن ربـاح كـان مـن رَعِيـل شـعراء الغـزل؛ إذ إنـه فَصَّـلَ فـي ذكـر شـعراء الغـزل، وهـذا مـا يـدل علـى أنـه يَعُـدُّ نفسـه فـي مَصَـافِّهم. كـذلك عنـد النظـر إلـى ردود نصـيب بـن ربـاح، نَلْمَـحُ رَجَاحَـةَ مَنْطِقِـهِ. فهـو بعـد أن يَـرُدَّ الحُجَّـةَ عـن كونـه لـيس مـن أصـحاب الهجـاء، يثبـت لنفسـه أنـه فَحْـلٌ مـن فُحُـول المـدح، وهـذا مـا يُلاحَـظُ فـي ديوانـه. أمـا رَجَاحَـةُ عقلـه وحكمتـه، فَقَـدْ بَـدَتَا واضـحتين فـي جوابـه عـن الـرجلين اللـذين لا ينبغـي أن يهجوهمـا. فـي هـذه المواضـع، يلفـت الشـاعر النظـر إلـى مـدى تَبَصُّـرِهِ وردة فعلـه وحكمتـه؛ ممـا يجعـل الدارسـين يُسَـلِّطُونَ الأضـواء علـى تَبَصُّـرِهِ وحكمتـه، والوقـوف عنـد ألفاظـه التـي تَـنِمُّ عـن رقـة ولطـف فـي الـرد وحسـن الوصـف. وقـد اتَّصَـفَ شـعره بالإيجـاز وجَزَالَـةِ اللفـظ،

وهذا الأمر مُسْتَحْسَنٌ عند العرب، إذ ((قيل لكاتب: ما السرور؟ قال: لفظٌ موجزٌ، وكلامٌ مُعْجِزٌ)) (الثعالبي، 2020، 29).

وقد شَاعَتْ أخبار الشاعر في المصادر العربية لكثرة لَطَائِفِهِ. فنجد أن صاحب الأغاني يذكر لنا محادثة جرير لنصيب، إذ ((مَرَّ جرير بنصيب وهو ينشد، فقال له: اذهب فأنت أشعر أهل جِلْدَتِك. قال: وجِلْدَتِكَ يا أبا حَزْرَة)) (الأصفهاني، 2008، 222).

لم تَقْتَصِرْ شهادة نصيب بالشَّاعِرِيَّةِ على نفسه، بل إنه شَهِدَ له سلاطين الدولة الأموية وأمراؤها. فعبد العزيز بن مروان يُفَاخِرُ به الشاعر الفحل أيمن بن خُرَيم، فيصفه، أي نصيبًا، بأنه أشعر منك، إذ يقول عبد العزيز بن مروان لأيمن بن خُرَيم: ((أنت والله شاعر! أحضِر بالباب حتى أذكرك للأمير. قال: فجلست على الباب ودخل، فما ظننت أنه أمكنه أن يذكرني حتى دُعِيَ بي فدخلت، فسلَّمت على عبد العزيز، فصعَّد في بصره وصوَّب ثم قال: أنت شاعر وَيْلَكَ؟ قلت: نعم أيها الأمير. قال: فأنشدني. فأنشدته فأعجبه شعري. وجاء الحاجب فقال: أيها الأمير، هذا أيمن بن خُرَيم الأسدي بالباب. فقال: ائذن له. فدخل فاطمأن فقال له الأمير: يا أيمن بن خُرَيم، كم ترى ثمن هذا العبد؟ فنظر إليَّ فقال: والله لَنِعْمَ الغادي في أَثَرِ المَخَاضِ هذا أيها الأمير، أرى ثمنه مائة دينار. قال: فإن له شعرًا وفصاحة. فقال لي أيمن: أتقول؟ الشعر. قلت: نعم. قال: قيمته ثلاثون دينارًا. قال: يا أيمن، أرفعه وتخفضه أنت؟ قال: لكونه أحمق أيها الأمير، ما لهذا وللشعر؟ أمثل هذا يقول الشعر أو يحسن شعرًا؟ فقال: أنشده يا نصيب. فأنشدته. فقال له عبد العزيز: كيف تسمع يا أيمن؟ قال: شعر أسود، هو أشعر أهل جلدته. قال: هو والله أشعر منك. قال: أمني أيها الأمير؟ قال: إي والله منك. قال: والله أيها الأمير، إنك لملول طرف. قال: كذبت والله، ما أنا كذلك. ولو كنت كذلك ما صبرت عليك تنازعني التحية وتؤاكلني الطعام وتتكئ على وسائدي وفُرشي، وبك ما بك، يعني: وضحًا كان بأيمن)). (الأصفهاني، 2008، 1\216-217)، إن تقديم الشاعر نصيب بن رباح أمام شاعر من شعراء البلاط الأموي يعطي دلالة على أن شعره جزل، وأنه حلو الألفاظ، رقيق المعاني، لطيف الوصف.

ولم تكن هذه الشهادة الأولى والأخيرة لنصيب بن رباح في حسن فصاحته وتخلُّصِه؛ إذ قال أبو عبد الله بن أبي إسحاق البصري: ((لئن وُلّيتُ العراق لأستكتَبن نصيبًا

لفصـاحته وتخلُّصـه إلـى جيـد الكـلام)). (الأصـفهاني، 2008، 1\224). لـم يكـن نصـيب بـن ربـاح غـافلًا عـن شـاعريته وحسـن ألفاظـه، وإنمـا كـان يعـد نفسـه ليقـارع الفحـول مـن الشـعراء؛ لتكـون لـه مكانـة بـين فحـول عصـره. فعـن مـدى شـاعريته يـذكر الأصـبهاني أن نصـيبًا قـال فـي نفسـه: ((قلـتُ الشـعر، وأنـا شـابٌ، فـأعجبني قـولي، فجعلـت آتـي مشـيخة مـن بنـي ضَـمْرة بـن بكـر بـن عبـد منـاة، وهـم مـوالي النُّصـيب، ومشـيخة مـن خزاعـة، فأنشِـدُهم القصـيدة مـن شـعري، ثـم أنسـبها إلـى بعـض شـعرائهم الماضـين، فيقولـون: أحسـن والله، هكـذا يكـون الكـلام! وهكـذا يكـون الشـعر! فلمَّـا سـمعت ذلـك مـنهم علمـتُ أنـي مُحسِـن)). (الأصـفهاني، 2008، 1\215). فمـع فحولتـه كـان بارعًـا فـي مـدى اختراقـه لمـدارك مـن ينشـدهم الشـعر فـي هـذه الروايـة. فقـد فَطِـنَ إلـى مـا يميـل إليـه أبنـاء عصـره؛ كـونهم يميلـون إلـى القـديم مـن الشـعر، وإن حكمـة ورجاحـة عقـل الشـاعر جعلتـه مـن المقـربين للـبلاط الأمـوي الحـاكم، حتـى أصـبح مـن نـدمان الـبلاط الأمـوي. فحُسـنُ تَخَلُّصِـه وردة فِعلِـه تكشـف مـدى فحولتـه وشـاعريته وحسـن ألفاظـه التـي طالمـا قرّبتـه مـن الـبلاط الأمـوي. وقـد دخـل ذات يـوم علـى عبـد الملـك بـن مـروان فأنشـده، فاستحسـن عبـد الملـك شـعره فوصـله، ثـم دعـا بالطعـام فطَعِـمَ معـه. فقـال لـه عبـد الملـك: هـل لـك أن تنادمنـا؟ قـال: يـا أميـر المـؤمنين، تَـأَمَّلْني. قـال: قـد أراك. قـال: يـا أميـر المـؤمنين، جلـدي أسـود وخَلقـي مُشـوّه ووجهـي قبـيح، ولسـت فـي منصـب، وإنمـا بلـغ بـي مجالسـتك ومؤاكلتـك عقلـي. وأنـا أكره أن أدخل عليه ما يُنقِصُه. فأعجبه كلامه وأعفاه. (النويري، 2004، 82/4).

تتضـح حكمـة الشـاعر فـي أسـلوبه ومـدى فعاليتـه فـي الإقنـاع. فالشـاعر بنـى لنفسـه مكانـة أدبيـة واجتماعيـة بذاتـه ولـم يكتسـبها اكتسـابًا، بـل بـذل جهـده فيهـا. والمعلـوم أن منادمـة الملـوك والحكـام لـيس بـالأمر السـهل، إنمـا تحتـاج هـذه المنادمـة جَهـدًا واسـعًا وفَهمًـا ثاقبًـا وأدبًـا بارعًـا لأخـذ هـذه المكانـة عنـد الحـاكم. والجـاحظ (255هـ) صـنف نـدماء الملـوك طبقـات إذ قـال: ((ومـن أخـلاق الملـك أن يجعـل نـدماءه طبقـات ومراتـب، وأن يَخُـصَّ ويَعُـمَّ، ويُقَـرِّبَ ويُباعِـدَ، ويَرفَـعَ ويَضَـعَ؛ إذ كـانوا علـى أقسـام وأدوات. فإنـا قـد نـرى الملـك يحتـاج إلـى الوضـيع للهـوه، كمـا يحتـاج إلـى الشـجاع لبأسـه، ويحتـاج إلـى المضـحك لحكايتـه، كمـا يَحتـاجُ إلـى الناسـك لعظتـه، ويحتـاج إلـى أهـل الهَـزلِ، كمـا يحتـاج إلـى أهـل الجـد والعقـل، ويحتـاج إلـى الزَّامِـرِ المطـرب، كمـا يحتـاج إلـى العـالم المُـتقِن. وهـذه أخـلاق الملـوك: أن يَحضُـرَهم كـل طبقـةٍ؛ إذ كـانوا ينصـرفون مـن حـال جـدٍّ إلـى حـال هَـزلٍ، ومـن

ضـحك إلـى تـذكير، ومـن لهـوٍ إلـى عظـةٍ. فكـل طبقـةٍ مـن هـذه الطبقـات تُرفـعُ مـرةً وتُحَـطُّ أخـرى، وتُعطَـى مـرةً وتُحـرَمُ أخـرى، خـلا الأشـراف والعلمـاء، فـإن الـذي يجـب لهـم رِفعـةُ المرتبـة، وإعطـاء القِسـط مـن المِيـزةِ، والنصـفة مـن المعاشـرة، مـا لَزِمُـوا الطاعـة ورعـوا حقها)) (الجاحظ، 1955، ص 64)

المُلاحَـظُ فـي أخبـار الشـاعر أنـه قـد أخـذ مكانتـه فـي الـبلاط الأُمـوي، فشـاعت أخبـاره وانتشرت أشعاره.

المبحث الثاني: شعره.

المطلب الأول: الرقة واللطف في إحساس الشاعر (العاطفة)

يُعد نَصِيبُ بن رَبَاح من شعراء الغزل، وغزله نابعٌ من تأثره، كما مر بنا سابقًا، بشعراء الغزل في عصره، حين ذكر الشعراء كجميل بثينة وعمر بن أبي ربيعة وكُثير عزَّة. فالشاعر شديد الغزارةِ الشعرية في هذا الباب، وكثيرًا ما يتناول في الغزل ألفاظ الرقة واللطف، كونُ الغزل يُعد من أوسع أبواب الألفاظ والمعاني الرقيقة واللطيفة. وقد حَضَرَ لفظا الرقة واللطف في أبيات الشاعر في وصفه حال العشاق، إذ قال: (سلوم، 1967، 111) (الوافر)

وَمـا فـي الأَرضِ أَشـقى مِـن مُحِـبٍّ ... وَإِن وُجِـدَ الهَـوى حلـوُ المَـذاقِ
تَـراهُ باكِيـاً أَبَـداً حَزينًـا ... مَخافَـةَ فُرقَـةٍ أَو لِاشـتِياقِ
فَيَبكـي إِن نَـأوا شَـوقاً إِلَـيهِم ... وَيَبكـي إِن دَنـوا خَـوفَ الفُـراقِ
فَتَسْـخُنُ عَيْنُـهُ عِنْـدَ التَّنَـائِي ... وَتَسْـخُنُ عَيْنُـهُ عِنـدَ التَّلَاقِـي

يُصَـوِّرُ الشـاعرُ حـالَ العُشَّـاقِ المتيمـين، فينطـقُ بألفـاظٍ تُعَبِّـرُ عـن مـدى جَيَشَـانِ العاطفـة عنـد المحبـين. وإن كـان الحـب قـد جَلَـبَ لـه المشقة والتعـب، كمـا فـي البيـت الأول، إلَّا أن فيـه مـن اللـذة والرقـة الذاتيـة مـا يفـوق هـذا التعـب. ففـي البيـت الثـاني، يَخْتَـرِقُ الشـاعرُ شـعورَ المحبـين، فيُصَـوِّرُ حـالَهم ومَـدَى بُكَـائِهِمْ وحُـزْنِهِمْ بسـبب الخـوف مـن الفُرْقَـةِ، فُرْقَـةِ الأحبـاب. ولـيس البكـاء مـن الفُرْقَـة فحسـب، لكـن أحيانًـا يكـون مـن شِـدَّةِ الاشْـتِياق للحبيـب. إذن، فبكـاءُ العاشـق، كمـا يُصَـوِّرُهُ الشـاعر، يكـون لأمـرين: إمـا خوفًـا مـن الفـراق، وإمـا لِلاشْـتِيَاقِ، لا يَنْفَـكُّ الشـاعرُ عـن تصـوير البكـاء للعشـاق، فيُصَـرِّحُ فـي مَطْلَـعِ البيـت الثالـث

بلفـظ (فَيَبْكِـي). إذْ إن الشـاعر كَـرَّرَ لفـظَ البكـاء فـي أبياتـه ثـلاث مـرات لأسـباب مختلفـة: (اشـتياقًا، شَـوْقًا، فِرَاقًـا). ففـي البيـت الثالـث، يُقَابِـلُ الشـاعرُ بـين صُـوَرِ البكـاء؛ إذْ لـم يجعـل للعشـاق مَخْرَجًـا مـن البكـاء: إن نَـأَوْا (ابتعـدوا) بَكَـى شَـوْقًا لهـم، وإن دَنَـوْا (اقتربـوا) بَكَـى خـوفَ الفـراق لهـم، والطبـاق فـي أبيـات الشـاعر (نـأو– دنـوا) يصـور تقلـب الأحـوال التـي يمـر بهـا العاشـق، كمـا أن (التنـائي– التلاقـي) يعكـس العـذاب لجميـع الأوقـات التـي يعيشـها العاشـق، أمـا المقابلـة التـي تمثلـت فـي (شـوقًا– خـوف الفـراق) فانهـا تبيـتن سـبب البكـاء فـي البعـد وكـذلك سـببه فـي القـرب والبكـاء هنـا لـيس مـن غَـمٍّ أو ضَـعْفٍ، لكنـه دليـلٌ علـى رِقَّـةِ القلـب والعواطـف، فهـو مُعَبِّـرٌ عـن مـدى تَعَلُّـقِ قلبـه بمحبوبـه. وقـد عَـدَّ الجـاحظُ البكـاءَ مـن الطبـائع الحسـنة، ((فالبكـاء صـالحٌ للطبـائع، ومحمـودُ المَغَبَّـةِ إذا وافـق الموضـع، ولـم يُجَـاوِزِ المقـدار، ولـم يَعْـدِلْ عـن الجهـة، ودليـلٌ علـى الرقـة، والبُعْـدِ مـن القسـوة، وربمـا عُـدَّ من الوفاء، وشِدَّةِ الوَجْدِ على الأولياء)) (الجاحظ 1990، 5).

ثُـمَّ الشـاعرُ فـي البيـت الأخيـر يُعَبِّـرُ عـن بكـاء العـين بـالسُّخُونَةِ عنـد التَّنَـائِي وعنـد التَّلَاقِـي. فاختـار الشـاعرُ لفـظَ (تَسْـخُنُ) لِرِقَّتِـهِ ولَطَافَتِـهِ ومَـدَى انسـجامه مـع الصـورة الشـعرية، ولـم يَـأْتِ بلفـظٍ آخَـرَ، كـأن يكـون (تُحْـرِقُ)، فيقـول: (فَتُحْـرِقُ عينُـه عنـد التَّنَـائِي وتُحْـرِقُ عينُـه عنـد التَّلَاقِـي). فلفـظُ (تُحْـرِقُ) تعبيـرٌ فيـه غِلْظَـةٌ، علـى عكـس (فَتَسْـخُنُ). الشـاعرُ يَعْكِـسُ مَـدَى عُذُوبَـةِ ألفاظـه واختيـاره لهـا ومَـدَى تَفَاعُلِهَـا بـالنص الشـعري، وفـي صـورةٍ مـن صُـوَرِ البكـاء الممـزوج بالرقـة والعاطفـة، يُصـوِّر الشـاعر حالـه عنـد سـماعه ببكـاء محبوبتـه، قـال: (سلوم، 130) (الطويل)

أَمُـــوتُ لِمَبكَاهَـــا أَسًـــى، إِنَّ لَـــوْعَتِي وَوَجْـدِي بِسُـعْدَى شَـجْوُهُ غَيْـرُ مُـنْجَمِ
بَكَـتْ شَـجْوَهَا تَحْـتَ الـدُّجَى فَتَسَـاجَمَتْ إِلَيْهَـا غُـرُوبُ الـدَّمْعِ فِـي كُـلِّ مَسْـجَمِ
فَلَـــوْ قَبْـــلَ مَبكَاهَـــا بَكَيْـــتُ صَـــبَابَةً بِسُـعْدَى شَـفَيْتُ الـنَّفْسَ قَبْـلَ التَّنَـدُّم
وَلَكِـــنْ بَكَـــتْ قَبْلِـــي فَهَـــيَّجَ لِـــي البُكَـــا بُكَاهَـــا فَقُلْـــتُ الفَضْـــلُ لِلْمُتَنَـــدِّمِ

يُصـوِّر الشـاعر عاطفتـه ومـدى حبـه لمعشـوقته وكيـف أنـه شـعر بـألم الفـراق إليهَـا وكيـف أنـه شـعر بـ(الموت) مـن شـدة الحنـين لهـا. كـل هـذا نـابع مـن بكـاء محبوبتـه فـي دُجَـى الليـل الحالـك السـواد. ثـم فـي البيـت الثالـث، يـوبّخ الشـاعر نفسـه لكونهـا بكـت قبلـه، ولـو أنـه بكـى قبـل مبكاهـا لَشُـفِيتْ نفسـه. فهـو متنـدم علـى مبكاهـا، ولـم يسـتعمل مـثلاً كلمـة "متأسـف"،

كـون النـدم شـعوراً داخليـاً نفسـياً فيـه تـوبيخ، أمـا "التأسـف" فغالبًـا مـا يكـون سـطحياً ضـعيف المشـاعر، يظهـر جليًـا الجنـاس الاشـتقاقي فـي الألفـاظ (مبكاهـا، بكيـتُ، البُكـا، بكاهـا) و (تسـاجمت، مسـجم) يضـفي جمـالا للـنص الشـعري إذ إنـه يعكـس جرسًـا موسـيقيًا حزينًـا نوعًـا، مـا يصـب فـي زيـادة جمـال المعنـي، أمـا الجماليـة التوكيـد عنـد الشـاعر فـتكمن فـي (إن لـوعتي) اسـتعمله الشـاعر لبيـان شـدة الألـم النفسـي الـذي يعيشـه، والبكـاء لـه دواعـي يمكـن أن تهيجـه ويمكـن أن يكـون ((البكـاء مـن خشـية الله: القطـرة منـه تكـفُّ مـن النـار أمثـال البحـور، ورجـل فاضـت عينـاه مـن خشـية الله. والبكـاء مـن السـرور، والبكـاء مـن الكـرب، والبكـاء مـن السُـكْر، والبكـاء مـن الخـوف، والبكـاء مـن الألـم)). (أبـو الـدنيا، 1998، 78)، أمـا فـي البيـت الأخيـر، فيُـؤْثِرُ الشـاعر محبوبتـه علـى نفسـه، ويُعلِّـل ذلـك بأنهـا لهـا الفضـل كونهـا تقـدَّمت عليـه بالبكـاء. يعكـس الشـاعر مـدى رقـة مشـاعره ولطـف إحساسـه تجـاه محبوبتـه بصـورة تسـتهوي القـارئ، إذ الشـاعر يمـزج بـين البكـاء – الـذي غالبـاً مـا يخـرج للضـجر والقسـوة – إلـى مـدلول ممـزوج بالرقـة واللطـف، ولـم يقتصـر تـوبيخ الشـاعر لنفسـه علـى بكـاء محبوبتـه قبلـه، بـل إنـه يـوبخ نفسـه لسـبقه الحمـام بالبكـاء إذ قـال: (سلوم، 124) (الطويل)

لَقَـد هَتَفـتَ فـي جُـنحِ لَيـل حَمامَـةٌ عَلـى فَـنـنٍ وَهنـاً وَإِنّـي لَنـائِمُ
فَقُلـتُ اعتِـذاراً عِنـدَ ذاكَ وَإِنَّنـي لِنَفسـي مِمّـا قَـد رَأَتـهُ لَلائِـمُ
أَأَزعُـمُ انّـي هـائِمٌ ذو صَـبابَة لِسُـعدى وَلا أَبكـي وَتَبكـي الحَمـائِمُ؟
كَـذَبتُ وَبَيـتِ اللهِ لَـو كنـتُ عاشِـقاً لَمـا سَـبَقتَني بِالبُكـاء الحَمـائِمُ

يُصَـرِّحُ الشـاعرُ بصـوتٍ عـالٍ فـي لـومِ نفسِـه، ويُبَـيِّنُ كيـف أنَّـه يَلُـومُ نفسَـه لكـون الحمـائم تنـوح لفقد أحبَّتِهـا، وأنَّـه لـيس بمثلهـا. فبـدأ بلـوم نفسـه، ثـمَّ إنَّـه فـي البيـت الثالـث يوجِّـه إلـى نفسـه سـؤالاً إنكاريـاً توبيخيـاً بقولـه: (أَأَزعُـمُ أَنِّـي هـائِمٌ). فكيـف يكـون هائمـاً بسُـعدى وتسـبِقُه الحمـائمُ بـالنوح والبكـاء، كـونَ ((كثـرة الـدموع وقلَّتِهـا تكـون علـى قـدر احتـراق القلـب، حتـى إذا احتـرق القلـبُ كلُّـه لـم يَشَـأ الحـزينُ أن يبكـي إلا بكـى، والقليـل مـن التـذكرة يجزئـه)) (أبـو الـدنيا، 1998، 76) ثـم فـي البيـت الأخيـر يكشـف عـن حقيقـةٍ مؤلمـة فـي قـرارَةِ نفسِـه، فيقارِنُ بينه وبين الحمائم وكيف أنها سبقتْه بالبكاء.

يصـور الشـاعر صـدق عاطفتِـه لمحبوبتِـه بأسـلوب رقيـق، وكيـف أنَّـه قـارنَ بـين نفسـه وبـين نـوح الحمـائم؛ إذ إنَّ الحمـائم ترمـز إلـى اللطـف والرقـة وصـدق العاطفـة، إذ لـم يُصَـوِّر مـدى أسـفِه لمحبوبتِـه بمخلـوق آخـر غيـر الحمـام، كونهـا أصـدقَ عاطفـة وأرقَّ إحساسـاً، لتتَّضِـحَ صـورة الرقـة فـي أبْهـى معانيهـا وأدقِّ تفاصـيلها، ويعكـس مـدى تحسـره القسـم الاذي اوردق في قوله: (وبيت الله) يبين فيه اعترافه الصريح بكذبه لدعواه انه الصادق في عشقه.

والشـاعر فـي مقـام آخـر يحصُـر الرقـة فـي (الكَبِـد)، وهـي مـن روائـع الشـاعر، إذ إنَّـه حصـر عاطفـة الاشـتياق فـي عُضـوٍ مـن أعضـاء الجسـم معـروف بالرقـة والعاطفـة، قـال: (سـلوم، 81) (الكامل)

وَذَكَـــرتُ مَـــن رَقَّـــت لَـــهُ كَبِـــدي ... وَأَبـــى فَلَـــيسَ تَـــرِقُّ لـــي كَبِـــدُه
لا قَومُـــــهُ قَـــــومي وَلا بَلَـــــدي ... فَنَكـــونُ حينـــاً جيـــرَةُ بَلَـــدِه
ووجـــدتُ وجـــداً لـــم يكـــن أحـــدٌ ... قبلـــي مـــن أجـــل صـــبابة يجـــده

يُبَـيِّنُ الشـاعر حالَـه عنـدما يـذكر المحبوبـة، فـذِكْرُها عنـده مقـرونٌ برقـة الكبـد، إذ جَعَـلَ مـن ذِكرهـا تعبيـراً نابعـاً مـن كـوامن إحساسـه. وإن كانـت هـي (المحبوبـة) لا يَـرِقُّ كبـدُها لـه، فإنـه صـادقٌ فـي مـدى تَعَلُّقِـهِ بهـا، فلـم يقابـل صـدود كبـدها بقسـوة اللفـظ ولا المعنـى، بـل قابلـه بالرقـة واللطـف، إذ جَعَلَـهُ مُنْطَلَـقَ جَيَشَـانِ إحساسـه فـي أدق أعضـاء جسـمه، ليُعَبِّـرَ عـن مـدى صـدق عاطفتـه لهـا، والمقابلـة بـين (رقـت لـه كبـدي) و(لـيس تـرق لـي كبـده) تبـين معنـى التضـاد الواضـح بـين لوعـة المحـب وإعـراض المحبـوب فـي صـورة تعكـي مـدى رقـة الوصـف عنـد الشـاعر، علـى الـرغم مـن أن قـوم محبوبتـه ليسـوا بقومـه، فتكـون عاطفتـه أقـرب إلـى نفسـه، ولا بلـد محبوبتـه جيـران بلـده، فتكـون هنـاك زيـارة لهـم ونظـرة لطـف ومـودة لمحبوبتـه. مـع هـذا، الشـاعر يُصَـرِّحُ بمـدى تَعَلُّقِـهِ بمحبوبتـه، ليُصَـوِّرَ هـذا الإحسـاس بصـورة مـن صـور الرقـة، وإن اسـتعمال الشـاعر للمجـاز المرسـل فـي (كبـدي وكبـده) يـراد منهـا المشـاعر الكامنـة فـي ذات الشـاعر إذ إن العـرب كثيـرًا مـا يـذكرون الكبـد ويعتقـدون أنـه موضـع الرقـة واللطـف، ولـم يبتعـد الشـاعر كثيـراً عـن وصـف حالتـه ومـدى هيامـه بـ "دعـد" حتـى أن هيامـه بهـا لـم يقتصـر فـي أيـام حياتـه، بـل جـاوز ذلـك إلـى مـا بعـد مماتـه، إذ قـال: (سلوم، 84) (الطويل)

أَهـيمُ بِدَعـدَ مـا حَيّيـتُ فَـإِن أَمُـتْ ... فَـوا حُزنـاً مَـن ذا يَهـيمُ بِهـا بعـدي

وَدَعــدُ مَشــوبُ الــدَّلِّ تُوليــكَ شــيمَةً لِشَــكٍّ فَــلا قُربــى بِدَعــدَ وَلا بُعــدُ بُعــدي

فالشاعر لشدة حبه لمعشوقته، كان تعبيره نابعاً من مدى تَعَلُّقِهِ بها، حتى إنه عبر عن مدى تَعَلُّقِهِ بها. فكان الشاعر يتساءل عن الذي يهيم بها بعده، على الرغم من صعوبة تَواصُلِهِ معها كونها متقلبة المزاج، وقد جاء الشاعر بالاستفهام الواضح الجلي (من ذا يهيم بها بعدي؟) ليخرج الاستفهام هنا للتحسر والانكسار لحال معشوقته، مع هذا، الشاعر لم يترك التفكير بها حتى بعد مماته. والشعر هنا، مع ذكر الموت وما به من ألم وقسوة، إلا أنه يأخذ بالقارئ إلى حالة العشق والهيام الواسعين، فتطغى ألفاظ الرقة واللطف على صورة الموت والألفاظ المتعلقة به.

ونجد أن الشاعر في موضعٍ آخر، يصوّر حاله ويتساءل متعجبًا عن حاله وكيف أن عشقه يختلف عن عشق العشاق، وأن حالة عشقه حالة فريدة لم يسبقه إليها قبله أحد، إذ قال: (سلوم، 84) (الطويل)

كَــأَنّي سَــنَنتُ الحُــبَّ أَوَّلَ عاشِــقٍ مِــنَ النــاسِ إِذ أَحبَبــتُ مِــن بَيــنِهِم وَحــدي

ينطلق الشاعر في مطلع البيت بـ (كأني) فيبدأ بالتشبيه، ويشبّه نفسه بمن سَنَّ الحب. فتجربة الشاعر فريدة من بين الناس، لا يشاركه في حبه أحد من الناس. والشعر هنا يصور مشاعره بصورة من صور الرقة والعاطفة، فيعبر عنهما بألطف ما يمكن أن يُعَبَّر عنه ليعكس مدى تعلّقه بمحبوبته.

المطلب الثاني: لطف ورقة شعره في حضرة الملوك والحكام والقادة.

لا غرو أن الشعراء عند دخولهم في مجالس الملوك، والحكام، والقادة، وأصحاب النفوذ من الأشراف، تكون لهم أخلاق يتخلقون بها، وآداب يتأدبون بها، وصفات يتحلَّون بها. فمخاطبة الأشراف تختلف عن مخاطبة عامة الناس، والتأدب في مجلسهم ضرورة من ضروريات حفظ المقام الذي هم فيه، ((ومن أخلاق الملك أن لا يَمُنَّ بإحسانٍ سَبَقَ منه، ما استقامت له طاعةُ مَن أنعم عليه، ودامت له ولايتُه، إلا أن يخرج من طاعةٍ إلى معصيةٍ. فإذا فعل ذلك، فمن أخلاقه أن يَمُنَّ عليه أولًا بإحسانه، ويُذَكِّرَه بلاءه عنده، وقلة شكره ووفائه، ثم يكون من وراء ذلك عقوبتُه بقدر ما يستحق ذلك الذنب في غِلَظِه ولِينِه)) (الجاحظ، 1955، 104).

فمجـالس الملـوك كانـت محفوظـة ولهـا خصوصـيتها فـي جميـع الحضـارات آنـذاك؛ إذ إنهـم كـانوا يصـنفون الـداخلين علـيهم إلـى طبقـات عليـا وسـفلى، وتُـوزَّع فـي مجالسـهم مراتـب الحاضـرين، فلـم يكـن هنـاك تسـاوٍ بـين الطبقـات، ((ثـم لـم يكـن ذلـك، بعـد، فـي أخـلاق الملـوك مـن الأعـاجم والعـرب حتـى ملـك يزيـد بـن عبـد الملـك، فسـوى بـين الطبقـة العليـا والسـفلى، وأفسـد أقسـام المراتـب، وغلـب عليـه اللهـو، واسـتخف بـآيين المملكـة، وأذن للنـدماء فـي الكـلام والضـحك والهـزل فـي مجلسـه والـرد عليـه، وهـو أول مـن شُـتِم فـي وجهـه مـن الخلفـاء، علـى جهـة الهـزل والسـخف)) (الجـاحظ، 1955، 75)، لـذلك، فمجـالس الملـوك لهـا خصوصـيتها، ولـم يُغفـل الشـعراء عـن ذلـك؛ فنصـيب بـن ربـاح عَبَّـر فـي كثيـر مـن أشـعاره عـن مـدى الخصوصـية التـي يتمتـع بهـا الملـك، وكيـف أنـه كـان يُلطِّـف فـي ألفاظـه وصـوره الشـعرية فـي مجـالس الملـوك. ففـي مدحـه لـعبد العزيـز بـن مـروان، يُعبِّـر عـن مـدى هذا الالتزام، إذ قال: (سلوم، 114) (الوافر)

يَقـولُ فَيُحسِـنُ القَـولَ اِبـنُ لَيلـى وَيَفعَـلُ فَـوقَ أحسـن مـا يَقـولُ
فَتـى لا يـرزَأُ الخُـلّانُ إِلّا مَـوَدَّتَهُم وَيَـرزؤه الخَليـل
فَبَشِّـر أَهـلَ مِصـر فَقَـد أَتـاهُم مَـع النيـل الَّـذي فـي مِصـر نيـل

يصـف الشـاعر عبـد العزيـز بـن مـروان فيعطيـه الصـفات الحسـنة، فقولـه أحسـن قـول، وكلامـه أحسـن كـلام، أمـا فعلـه فـيفوق أحسـن مـا يقـول. فالشـاعر يجمـع خصـلتين حميـدتين فـي ممدوحـه: حسـن الكـلام وحسـن الفعـل، يسـتعمل الشـاعر الإيجـاز فـي صـورة بلاغيـة جميلـة وذلـك فـي (فيحسـن القـول) والإيجـازي جـاء هنـا فـي حـذف المفعـول بـه ليعطـي دلالـة علـى العمـوم والمـراد بـه (يحسـن كـل قـول)، ثـم فـي البيـت الثـاني، ينتقـل الشـاعر مـن صـفات ممدوحـه إلـى بيـان مكانتـه بـين جلسـائه؛ فهـو ذو وجاهـة واحتـرام ومحبـة، لا يُـنقِص مـن حـق أصـحابه شـيئًا، بـل يُـرزَأ هـو مـودتهم، أي: يُطلـب منـه الحـق فـي مـودتهم. بعـدها، ينتقـل الشـاعر فـي البيـت الثالـث إلـى أهـل مصـر، موجِّهًـا لهـم البشـارة التـي يراهـا فـي ممدوحـه، بـأنهم قـد أتـاهم مـع النهـر الجليـل والمقـدس الـذي عنـدهم (نهـر النيـل)، نيـل آخـر لا يقـل أهميـة عـن نـيلهم الـذي يمـدّهم بـالخيرات، فإعطـاؤه كعطـاء النيـل ممـدودٌ لهـم طيلـة أيـامهم، تتجلـى صـورة الجنـاس التـام فـي هـذا البيـت فـي لفظتـي (النيـل–نَيـل) فـالأولي (النيـل) اسـم النهـر المعـروف، و (نَيـل) الثانيـة للعطـاء والتفضـل، وينـتج مـن هـذا الجنـاس جرسًـا يشـد القـارئ ويسـتميله الـى الـتمعن لـيس فقـط فـي الألفـاظ بـل فـي الموسـيقى

العروضـية، وهنـا تتضـح مـدى الرقـة فـي وصـف ممدوحـه بحسـن القـول والفعـل، ولطـف المقـام، وغـزارة العطـاء، ولـم يبتعـد الشـاعر فـي مـدح عبـد العزيـز بـن مـروان عـن صـور اللطف والرقة، إذ قال فيه: (سلوم، 90) (البسيط)

الحَمْـــدُ لِلَّهِ أمـــا بَعْـــدُ يـــا عُمَـــرُ فَقَـــدْ أَتَتْنَـــا بِـــكَ الحَاجَـــاتُ وَالقَـــدَرُ

فَأَنْـــتَ رَأْسُ قُـــرَيْشٍ وَابْـــنُ سَـــيِّدِهَا وَالـــرَّأْسُ فِيـــهِ يَكُـــونُ السَّـــمْعُ وَالبَصَـــرُ

يبـدأ الشـاعر بـالحمد، وهـو مـن أرق الألفـاظ، ويعبّـر عـن حُكمـه بأنـه جـاء بـه القـدر، فتسلّمه زمـام الحكـم جـاء بـدعوات النـاس بـأن يُـوَلَّى علـيهم حـاكم يحقّـق عنـدهم العدالـة ويعطـي الحقـوق لمسـتحقيها. هـذا مـن جانـب نظـرة النـاس لـعمر بـن عبـد العزيـز. أمـا مـا يحملـه هـو نفسـه –الحـاكم– مـن صـفات تميّـزه، فإنـه كمـا عبّـر الشـاعر: (رأس قـريش وابـن سـيّدها). جـاء الشـاعر بـالاستعارة (الـرأس) ليصـوّر معنـى مجازيًّـا للتعبيـر عـن القيـادة الحكيمـة للرعيـة؛ فليسـت القيـادة لبـاس الـرأس. هـذا مـدلول الـرأس فـي صـدر البيـت الثـاني. أمـا مـدلول الـرأس فـي عجـز البيـت الثـاني، فإنـه ينطلـق مـن صـورة البيتـين لـدى الشـاعر، إذ يعلّـل معنـى الـرأس لمـا لـه مـن أهميـة، كـون الـرأس فيـه السـمع والبصـر. وهنـا اسـتعارة بليغـة تعطـي صـورة عـن مـدى أهميـة وكياسـة عمـر بـن عبـد العزيـز فـي إدارة الأمـور. إذن، الـرأس تُـدار فيـه حـواسّ الجسـد، فتصـويره بـالرأس دلالـة علـى مـدى حكمتـه فـي إدارة الشـؤون. فيعبـر الشـاعر عـن الممـدوح بصـورة مملـوءة بـالرقة، ممزوجـة بمشـاعره الصـادقة تجـاه ممدوحـه، ولـم يكتـفِ الشـاعر بـأن يصـف ممدوحـه بـالحكمة ورجاحـة العقـل، بـل إنـه فـي كثيـر مـن مدائحـه يتنقـل بـين الصـفات الحميـدة مـن واحـدة إلـى أخـرى بـأرق العبـارات التـي تـنمّ عـن مـدى تأدّبـه فـي حضـرة الملـوك. ففـي مدحـه عبـد العزيـز بـن مـروان، وسّـع مـن صـفات ممدوحـه ليلبسـها صـورًا غايـة فـي الرقـة واللطـف، إذ قـال فيـه: (سـلوم، 99) (المتقارب)

فَبابُـــــكَ أَلْـــــيَنُ أبـــــوابِهِم وَدارُكَ مَأهُولَـــــــةٌ عـــــامِرَه

وَكَلبُـــــكَ أَرْأَفُ بِـــــالزائِرينَ مـــــن الأمِّ بِابنَتِهـــا الزائِـــرَه

وَكَفُّـــكَ حـــينَ تَـــرى الســـائِلينَ أَنْـــدى مـــن اللَيلَـــةِ المـــاطِرَه

فَمِنـــكَ العَطـــاءُ وَمِنَّـــا الثَنـــاءُ بِكُـــلِّ مُحَبَّـــرَةٍ ســـائِرَه

لـم يُـرِد الشـاعر بـالباب ذلـك البـاب المصـنوع مـن الخشـب أو غيـره، بـل هـو تعبيـر مجـازي عـن مـدى سـهولة الوصـول إلـى الحـاكم بأبسـط الطـرق، فبابـه مفتـوح للنـاس. هـذا الوصـف للممـدوح بـلِين الجانـب يعطـي معنـى آخـر مـن معـاني الكـرم الـذي طالمـا عبَّـر العـرب بـه عـن الكـريم بلـين البـاب أو سـعة البـاب. يتجـاوز الشـاعر البـاب ليـدخل فنـاء دار ممدوحـه ليصـور مـا يوجـد داخـل هـذه الـدار، فـدار ممدوحـه مأهولـة عـامرة بالسـخاء والكـرم وطيـب العـيش. ثـم فـي البيـت الثـاني، يصـور الشـاعر صـاحب الـدار، فلـم يجعـل كلبـه يَنـبح علـى الزائـرين فيبعـدهم، بـل إنـه رؤوف بـالزائرين. وهـذه الصـفة مـأخوذة مـن سـيرة صـاحب الـدار، فكلبـه أرأف بـالزائرين مـن الأم لابنتهـا التـي تزورهـا، وعـادةً مـا تكـون الأم أبلـغ صـورة وأتـم ضـيافة لابنتهـا عنـد زيارتهـا، فتغمرهـا حنانًـا ولطفًـا قبـل أن تُقـدِّم لهـا طعامًـا أو شـرابًا. أمـا سـيد الـدار، فعطـاؤه للسـائلين أكثـر إغـداقًا مـن الليلـة المـاطرة، وفـي مقابلـة تـنم عـن مـدى الرقـة واللطـف عنـد الشـاعر قولـه: (منـك العطـاء ومنـا الثنـاء) يعكـس فيهـا صـورة تبادليـة بـين سـخاء ممدوحـه، وشـكر المـادح، وقـد عبَّـر الشـاعر عـن مـدى سـخاء ممدوحـه بـسَعَة العطـاء فـي الليلـة المـاطرة، ولـم يصـور عطـاءه فـي النهـار؛ كـون السـائل يكـون أحـوج للعطـاء والإيـواء بالليـل منـه إلـى النهـار، ليعطـي صـورة ودلالـة أوسـع عـن مـدى عطـاء ممدوحـه. ثـم يَحصُـر العطـاء بممدوحـه، إذ إنَّ العطـاء كـلَّ العطـاء منـه، والثنـاء كلَّـه مـن الرعيـة لِعَطائـه. يتوسـع الشـاعر فـي مـدح الملـوك والحكـام بصـور متنوعـة تعكـس مـدى سـعة قريحـة الشـاعر ومـدى تمكُّنـه؛ إذ إنـه يختـرق عـالم الألفـاظ فـيعكس أبهـى الصـور، للمعـاني فـي مدحـه لـسليمان بـن عبـد الملـك، ينتقـل الشـاعر إلـى صـور أخـرى مـن صـوره الرقيقة، قال: (سلوم، 59) (الطويل)

وَلَـو كـانَ فَـوقَ النَّـاسِ حَـيٌّ فِعالُـهُ كَفِعلِـكَ، أَو لِلفِعـلِ مِنـهُ يُقـارِبُ
لَقُلنـا لَـهُ شِـبهٌ، وَلَكِـن تَعَـذَّرَتْ سِـواكَ عَلـى المُستَشـفِعينَ
هُـوَ البَـدرُ وَالنَّـاسُ الكَواكِـبُ حَولَـهُ وَهَـل تُشـبِهُ البَـدرَ المُنيـرَ الكَواكِـبُ

ففعـالُ (أعمـال) ممدوحـه كثيـرة وجليلـة، قلَّمـا يُشـابهه بهـا أحـدٌ مـن الأحيـاء أمثالـه، فهـو سـابق لهـم فـي مُسـاعدة المحتـاجين إليـه. ثـم يُلخـص صـفات ممدوحـه، فيُشـبهه بـالبدر، وهنـا صـورة مـن صـور المبالغـة فـي المـدح، إذ شـبّهه بالبـدر، أمـا النـاس فـكواكب. ومـع أن للكواكـب مـا لهـا مـن البهـاء، إلا أنهـا تـدور حولـه، إذ جعلـه مركـزًا لتلـك الكواكـب، أي أن نـور البـدر هـو الـذي يُضـيء الكواكـب، وقـد جـاء الشـاعر بالتشـبيه البليـغ (هُوَ البَدرُ وَالنَّاسُ

الكَواكِـبُ حَولَـهُ) مـع جمـال ورقـة الألفـاظ إذ شـبهه ممدوحـة بالبـدر والنـاس بالكواكـب، والبـدر هنـا يطغـى فـي نـوره علـى الكواكـب التـي حولـه، ثـم يتسـاءل الشـاعر عـن الكواكـب، فـلا يمكـن أن يُقـارن تلـك الكواكـب بـالبدر؛ إذ البـدر أعلـى رتبـة وأشـرف موضـعًا منهـا، فكلهـا مفتقـرة لنـوره، دلالـة علـى عـدم مقارنتـه الملـوك والحكـام بـه؛ لـسعة عطائـه، و الاستفهام هنـا جـاء إنكاريًـا وغـرض الشـاعر مـن هـذا الاستفهام نفـي المشـابهة بـين ممدوحـه وغيـره، ولا يَفْـكُ الشـاعر عـن مـدح الحَكَـم بـن المطلـب بوصـفه بـالبدر فـي جمالـه ورقّتـه ومكانته، قال (سلوم، 119) (الوافر)

أَبـــا مَـــرْوانَ لَسْـــتَ بِخَـــارِجِيٍّ وَلَـــيْسَ قَـــدِيمُ مَجْـــدِكَ بِانْتِحَـــالِ
أَغَـــرُّ إِذا الـــرِّوَاقُ انْجَـــابَ عَنْـــهُ بَـــدا مِثْـــلَ الْهِـــلالِ عَلـــى مِثَـــالِ
تَـــرا آه العُيـــون كَمـــا تَـــراءى عَشـــيَّة فِطرهـــا وَضـــحُ الهِـــلالِ

يصـف الشـاعر ممدوحـه بـالعزة والشـرف؛ إذ إنـه اكتسـب المجـد والشـرف بنفسـه ولـن يكتسـبهما مـن أحـد، وأن مجـده الـذي هـو فيـه لـيس مصـنوعًا، بـل إنـه مـن فعالـه ولـيس مخلوعًـا عليـه. ثـم يبـدأ الشـاعر بوصـف ممدوحـه بـحسن النظـر ونضـارة الوجـه؛ إذ يشـبهه بـالهلال ليلـة عيـد الفطـر، كـون الهـلال فـي مثـل هـذا الوقـت يكـون أكثـر وضـوحًا وجمـالًا، وأن ممدوحه واضح الصفات جميل المنظر.

المطلـب الثالـث: الرقـة واللطـف فـي تمـثلات الشـاعر الذاتيـة (رجاحـة عقلـه ورحابـة صدره)

تُبـين الأخبـار الـواردة عـن الشـاعر رجاحـة عقلـه، ورحابـة صـدره، وسـمو أخلاقـه فـي عـدَّة مواقـف مـن حياتـه. لـم يكـن هـذا نتيجـة ضـعف لـدى الشـاعر؛ إذ إن الإنسـان يكـون أحيانًـا أحـوج فـي تعاملـه مـع النـاس إلـى رحابـة الصـدر؛ لكـون النـاس علـى اخـتلاف فـي طبـائعهم وأخلاقهـم، لـذا، كـان لزامًـا عليـه أن يتمتـع برحابـة صـدر كـي يسـتوعب أكبـر عـدد ممكـن مـن النـاس حولـه، وذلـك ليتـرك أثـرًا فـي نفوسـهم، ويسـتميلهم إلـى مـا يصـبو إليـه، ويُسـيِّرهم إلـى مـا هـو أحـوج إليـه. إنَّ رجاحـة العقـل واتسـاع المـدارك يجعلـه قريبًـا مـن طبقـات المجتمع المختلفة؛ كونه بصيرًا بكيفية التعامل معهم.

لقـد اسـتطاع الشـاعر نصـيب بـن ربـاح أن يختـرق طبقـات المجتمـع آنـذاك عـن طريـق رجاحـة عقلـه ورحابـة صـدره؛ فكـان مـن نـدماء الحكـام والأمـراء، واختـرق عـالم المـرأة فكـان مـن العشـاق المُتيَّمـين، ودخـل قلـوب كثيـر مـن النسـاء عـن طريـق أدبـه الـذي هـو مـرآة عقلـه، وهـذا الأدب ردَّ عـن نفسـه سـواد لونـه وضـعف نسـبه، فكـان فحـلًا مـن فحـول الشـعراء؛ إذ إنـه كثيـرًا مـا كـان يـوازي بـين عقلـه وأدبـه وبـين سـواد لونـه. إن سـواده لـم يكـن عائقًـا فـي بيـان إحساسـه وأخـلاق لسـانه، فإنـه كثيـرًا مـا ردَّ علـى مـن يحقـره لسـواد لونـه، إذ قال: (سلوم، 57) (الوافر)

وَإِنْ أَكُ حَالِكًـــا لَـــوْنِي فَـــإِنِّي ... لِعَقْـــلٍ غَيْـــرِ ذِي سَـــقَطٍ وِعَـــاءُ
وَمَـــا نَزَلَـــتْ بِـــيَ الْحَاجَـــاتُ إِلَّا ... وَفِـــي عِرْضِـــي مِـــنَ الطَّمَـــعِ الْحَيَـــاءُ

يشـير الشـاعر هنـا إلـى سـواد لونـه، الـذي لـم يكـن يمثـل نَقصًـا فـي قيمتـه الاجتماعيـة بـين النـاس. لقـد جَعـل مـن عقلـه الميـزان الـذي يقدّمـه بـين يـدي أفـراد مجتمعـه، كـون عقلـه وِعـاءً للفضـائل، ولـيس سـواد لونـه وجـاء الشـاعر بالاسـتعارة المكنيـة فـي قولـه (نزلـت بـيَ الحاجـات)؛ فقـد صـوّر الحاجـات (الفقـر أو الضـيق) بصـورة الضـيف ثقيـل الـذي ينـزل عنـد المضـيف لـه، ويكمـن جمـال الاسـتعارة بالتشـخيص، كمـا أن لـه كرامـة وعـزة نفـس لـم تنحـدر بـه إلـى التمسـك بأشـياء اعتباريـة ليسـت مـن مقامـه، فالحيـاء يمنعـه مـن الطمـع فيمـا لـيس له.

ويُعبـر الشـاعر فـي مواضـع أخـرى عـن سـواد لونـه وكيـف أن هـذا السـواد لـيس ممـا يَـنقُص من قدره. وفي ذلك قال: (سلوم، 73) (الكامل)

لَيْسَ السَّوَادُ بِنَاقِصِي مَا دَامَ لِي ... هَـــذَا اللِّسَـــانُ إِلَـــى فُـــؤَادٍ ثَابِـــتِ
مَـــنْ كَـــانَ تَرْفَعُـــهُ مَنَابِـــتُ أَصْـــلِهِ ... فَبُيُـــوتُ أَشْـــعَارِي جَعَلْـــنَ مَنَـــابِتِي
كَـــمْ بَـــيْنَ أَسْـــوَدَ نَـــاطِقٍ بِبَيَانِـــهِ ... مَاضِـــي الْجِنَـــانِ وَبَـــيْنَ أَبْـــيَضَ صَـــامِتِ!
إِنِّـــي لَيَحْسُـــدُنِي الرَّفِيـــعُ بِنَـــاؤُهُ ... مِـــنْ فَضْـــلِ ذَاكَ وَلَـــيْسَ بِـــي مِـــنْ شَـــامِتِ

تتضـح شخصـية الشـاعر القويـة فـي عـرض وتقـديم نفسـه؛ فشخصـيته عظيمـة فـي هـذا الوصـف، إذ الثقـة بـالنفس تطغـى علـى أبياتـه. فلـون بشـرته لـيس بـنقص فـي ذاتـه، إذ إن لسـانه قـد طغـى علـى سـواده، فسـواد لونـه لـيس بعيـب، اسـتعمل الشـاعر الكنايـة ليعطـي صـورة مـن صـور الرقـة اللطـف مـع مـا للمعنـي مـن هـذه السـمة فجـاء ب (السـواد) وهـو

كنايـة عـن لـون بشـرته الظـاهر، ثـم اردفهـا ب (اللسـان) وهـو كنايـة عـن فصـاحته ورقتـه، و (فـؤاد ثابـت) كنايـة عـن الشـجاعة والإقـدام، ثـم ينتقـل الشـاعر فـي المقارنـة بـين مـن يتفـاخر بنسـبه وأهلـه ومالـه (مـن نسـب شـريف واسـم كـريم ومـال وفيـر بـين النـاس)، وبينـه كشـاعر، فيفخـر علـى غيـره بأشـعاره التـي تُعَدُّ منابـتَ لأصـله، بعـد ذلـك، يعقـد الشـاعر مقارنـة أخـرى بـين الأسـود النـاطق والأبـيض الصـامت؛ إذ جَعـل الشـاعر الأسـود المعبـر، ذا اللسـان القـوي الحُجـة، الفصـيح البيـان، القـوي القريحـة، خيـرًا مـن الأبـيض حسـن البشـرة وحسـن المنظـر، الـذي هـو صـامت اللسـان وضـعيف البيـان، ولـم يكتـفِ الشـاعر بهـذه المقارنـة، بـل يـرى أنـه مُقـدَّم علـى غيـره مـن أصـحاب الشـرف والرفعـة والمكانـة، إذ إن هـؤلاء يحسـدون الشـاعر علـى فصـاحته ومنطقـه، فالشـاعر يَنطَلِـق فـي ثـورة فكريـة لتحريـر بعـض العقـول التـي تنظـر إلـى اللـون فتجعلـه مقياسًـا للتقيـيم، مؤكـدًا أن قيمـة الإنسـان لا تَنحَصِـر فـي لونـه، وأن اللـون لـيس مـدعاة للسـخرية والحـط مـن الآخـرين. إذ قـال: (سـلوم، 71) (الخفيف)

وَلَـيسَ يُـزري السَـوادُ يومـاً بِـذِي اللُّـبِّ وَلَا بِـــالفَتَى اللَّبِيـــبِ الأَدِيـــبِ

إِن يَكُـــن لِلسَّـــوَادِ فِـــيَّ نَصِـــيبٌ فَبَيَـــاضُ الأَخـــلَاقِ مِنـــهُ نَصِـــيبِي

يـدافع الشـاعر فـي هـذا الـنص عـن أهميـة العقـل والأدب، التـي تطغـى علـى اللـون، فـالازدراء بسـبب اللـون لـيس بـذي قيمـة للـذي يتمتـع بالعقـل والأدب، إن مسـألة اللـؤم والضّـعة لا تـرتبط بـاللون. فالبيـت الأول يحـاكي عمـوم القضـية التـي كثيـرًا مـا تُثـار حـول لـون البشـرة، أمـا فـي البيـت الثـاني، فالشـاعر يعبّـر عـن ذاتـه بصـورة جليلـة؛ إذ جعـل مـن بيـاض أخلاقـه نصـيبًا لـه. الشـاعر لا ينكـر لونـه، ولـو كـان إنكـاره مجازيًّـا، بـل نجـد أنـه يعمل على محاولة الاستفادة من لونه الأسود ليقابله بـ "البياض"؛ مسمّيًا إياه الأخلاق.

جمـال البيـان يُلحـظ عنـد النظـر إلـى معالجـات الشـاعر فـي ذكـر سـواد البشـرة؛ إذ إنـه يعتمـد علـى الصـفات الأخلاقيـة لكسـر النظـرة الدونيـة للمجتمـع، كحسـن الخُلُـق ورجاحـة العقـل وسـمو الـنفس فـي تـرك الفحـش فـي القـول والفعـل، وهـذا بـدا واضـحًا فـي احتجـاج الشـاعر على جارية عابثَتْ في سواد لونه، إذ قال: (سلوم، 58) (الوافر)

فَـــإِن أَكُ حالِكـــاً فَالمِســـكُ أَحـــوَى وَمَـــا لِسَـــوَادِ جِلـــدِي مِـــن دَوَاء

وَلِـــي كَـــرَمٌ عَـــنِ الفَحشَـــاءِ نَـــاءٍ كَبُعـــدِ الأَرضِ عَـــن جَـــوِّ السَـــمَاءِ

وَمِثلِـــي فِـــي رِجَـــالِكُم قَلِيـــلٌ وَمِثلُـــكِ لَـــيسَ يُعـــدَمُ فِـــي النِسَـــاءِ

فَـــإِن تَرضَـــيْ فَـــرُدِّي قَـــولَ رَاضٍ وَإِن تَـــأبَيْ فَـــنَحنُ عَلَـــى السَـــوَاءِ

يصـف الشـاعر لونـه الحالـك فيقارنـه بحـبّ النسـاء لـبعض الأشـياء، وهـو المِسـك. إذ إن المسـك الثمـين يكـون أحـوى؛ أي الـذي يميـل إلـى السـواد، وهـذا دليـل علـى أصـالة ذلـك المسـك. كلمـا ازداد ميلـه إلـى السـواد كـان أفضـل، جـاء الشـاعر بالتشـبيه الضـمني ليعـزز جمـال لونـه إذ قـال: (فَالمِسـكُ أَحـوَى)، ولـم يصـرح بانـه هـو المسـك بذاتـه، وقـد جـاء بلفـظ المسـك لدلالـة علـى لونـه الأسـود، لكـن هـذا المسـك يعـد مـن أرقـى وأغلـى مـن غيـرة مـن أنـواع الطيـب، فالشـاعر يشـبه سـواد لونـه الـداكن بـالمسك. أمـا سـواد جلـده فلـيس بمـرض يمكـن أن يُـداوَى، ويُقـال إنـه قـد تـرك مداواتـه فتعيبـه الجاريـة. بـل إن لونـه لـيس لـه دواء، ولـو كـان لـه دواء مـا تـوانى عـن التـداوي بـه، لكـن الشـاعر يفتخـر بمـا يمكـن أن يكـون أمـرًا اكتسـابيًّا لـيس متعلقًـا بلونـه، وهـو الترفُّـع عـن الفحشـاء. فترفُّعـه عـن الفحشـاء كـرم يُخلـع علـى شخصـية الشـاعر، وأن هـذا الكـرم عـن الخَنـا كبيـر وواسـع، فشـبهه كبُعـد الأرض عـن السـماء، وهـو كنايـة عـن بعـد المسـافة فيمـا بينـه وبـين ذلـك الفحـش، ثـم ينتقـل الشـاعر لإجـراء مقارنـة فيمـا بينـه وبـين تلـك الجاريـة، كـردة فعـل عقلانيـة تـنم عـن مـدى تعقُّـل الشـاعر وبُعـد نظـره. فلـم يزجرهـا وينـل منهـا بقـول أو فعـل، بـل فنـد رأيهـا فيـه وعرَّفهـا بنفسـه. فعـرض لهـا نفسـه بطريقـة عقلانيـة تـنم عـن مـدى فصـاحته، فـمِثله فـي الرجـال قليـل، ولـم ينـفِ الشـاعر وجـود مثلـه فـي قومهـا؛ لكـي لا يقـع فـي المغـالاة بنفسـه والتقليـل مـن شـأن الآخـر، بـل اسـتعمل نـص: (ومثلـي فـي رجـالكم قليـل)؛ إذ لـم يَرغـب أن يقلـل مـن قيمـة رجـالهم، لكـن مـن ناحيـة الجاريـة، فمثلهـا كثيـر، وأنهـا لـم تكـن نـادرة فـي النسـاء، وأنهـا يُعـدم أن يكـون لهـا شـبيه فـي النسـاء، وعـزز الشـاعر جماليـة الرقـة واللطـف فـي المقابلـة الـواردة فـي الفـاظ (وَمِثلِـي فِـي رِجَـالِكُم قَلِيـلٌ)، (وَمِثلُـكِ لَـيسَ يُعـدَمُ فِـي النِسَـاءِ)يخرج الشـاعر مـن صـمته ليفخـر بنفسـه ليعطيهـا الصـدارة علـى مـن عابتـه، وعنـد الرجـوع إلـى صـدر البيـت الأول، نجـد أن لونـه نـادر كنـدرة المسـك المائـل للسـواد، وأنهـا أقـل شـأنًا منـه فـي نـدرة النساء.

عنـد النظـر فـي نتـائج الشـاعر، نجـد أن هنـاك وقفـات كثيـرة يقـف الشـاعر عنـدها فـي ذكـر لونـه والـرد علـى المعيبـين، إذ يمكـن أن يمثـل هـذا اللـون ظـاهرة اجتماعيـة فـي ذلـك العصـر

يحـاول الشـاعر جاهـدًا أن يتصـدى لهـا عـن طريـق سـليقته الشـعرية، متسـلحًا بمـا يملـك مـن فصـاحة ورجاحـة عقـل، فـي رد تلـك الظـاهرة السـلبية بطريقـة أدبيـة ومعالجتهـا معالجـة موضوعية.

الخاتمة.

تنـاول البحـثُ مفهـومي الرقـة واللطـف ومـدى حضـورهما عنـد الشـاعر نصـيب بـن ربـاح؛ وقـد خلصـت النتيجـة إلـى أن الشـاعر قـد بـرع فـي إيـراد هـذين اللفظـين، ممـا جعـل النـاظر فـي شـعره يلمـس مـدى توظيفهمـا بـدلالاتهما العميقـة فـي ثنايـا قصـائده، لدرجـة يمكـن معهـا القـول إنهمـا شـكّلا ظـاهرةً فنيـة فـي شـعره، لقـد اسـتعمل الشـاعر هـذين المفهـومين فـي أكثـر مـن نـص ومناسـبة شـعرية، لـذا يمكـن القـول أن اللفظـين قـد هيمنـا علـى معجمـه الشـعري لمـل لهمـا مـن أهميـة بالغـة فـي تجـاوز مشـكلة لونـه ووضـعه الاجتمـاعي فـي ظـل بيئـة أمويـة ذات نزعـة عرقيـة، وقـد اسـتطاع الشـاعر أن يتجـاوز هـذه الحـدود ليصـل الـى منادمـة السـلاطين، ولـم يقتصـر ذلـك علـى العاطفـة الذاتيـة فحسـب، بـل امتـد ليشـمل مـوارد كثيـرة، منهـا مـا كـان فـي حضـرة الملـوك والقـادة؛ وهـو مـا يشـير إلـى تمكـن الشـاعر مـن ناصـية البيـان، فكانـت الألفـاظ تتـدفق مـن قريحتـه لتحـاكي مـن حولـه بـأرق العبـارات وألطـف الألفـاظ، وعـن طريـق خصـائص شـعره الفنيـة اسـتطاع الشـاعر أن يوظـف هـذه الخصـائص فـي مفهـوم الرقـة واللطـف، لـيعكس مـدى فحولـة الشـاعر ليـزاحم فحـول عصـره كـالفرزدق وجريـر والأخطـل وغيـرهم مـن الفحـول لمـا يتمتـع بـه مـن خصـائص فنيـة وأسـلوبية جعلتـه فـي مصـاف فحـول عصـره، وكـل ذلـك تجلـى فـي بيئـة لا تنفـك عـن طبيعـة الجزيـرة العربيـة التـي كانـت آنـذاك ميالـةً إلـى الخشـونة والبـداوة؛ وفـي هـذا إشـارة جليّـة إلـى سـعة ثقافـة الشاعر واطلاعه، إذ لم تقف تلك البيئة القاسية حاجزاً أمام رقة قريحته وشاعريته.

المصادر والمراجع.

1-ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن(597هـ). (1997). أخبار الظراف والمتماجنين. بعناية: بسام عبد الوهاب الجابي. ط1. بيروت: دار ابن حزم.

٢-ابن منظور، (711هـ). (د ت). لسان العرب. تحقيق: عبد الله علي الكبير. (د. ط) مصر: دار المعارف.

3-أبو الدنيا، أبو بكر بن عبد الله بن محمد(281هـ). (1998). الرقة والبكاء. تحقيق: محمد خير رمضان يوسف. ط3. بيروت: دار ابن حزم.

4-الأصفهاني، أبو الفرج (356هـ). (2008). كتاب الأغاني. تحقيق: إحسان عباس. إبراهيم السعافين، بكر عباس. ط 3. بيروت: دار صادر.

5-الثعالبي، أبو منصور (429هـ). (2020). اللطف واللطائف. تحقيق: د. محمود الجادر. ط2. بغداد: دار الشؤون الثقافية.

6-الجاحظ، (255هـ). (1990). البخلاء. تحقيق: طه الحاجري. ط 7. القاهرة: دار المعارف.

7-الجاحظ، (255هـ). (1955). التاج في أخلاق الملوك. (د. ط). بيروت: دار الفكر.

8-الرازي، محمد بن أبي بكر(666هـ). (1986). مختار الصحاح. (د. ط) بيروت: مكتبة لبنان.

9-الزركلي، خير الدين (2002). الأعلام. ط 15. بيروت: دار العلم للملايين.

10-سلوم، داود (1967)، شعر نصيب بن رباح. (د. ط). بغداد: مطبعة الإرشاد.

11-شارل لالو، (2010). مبادئ علم الجمال (الاستطيقيا). ترجمة: مصطفى ماهر. مراجعة وتقديم: يوسف مراد. القاهرة: المركز القومي للترجمة، العدد 1507.

12-العسكري، أبو هلال (395هـ). (د.ت). الفروق اللغوية. تحقيق: محمد إبراهيم سليم. (د. ط). القاهرة: دار العلم والثقافة.

13-الفراهيدي، الخليل بن أحمد (174هـ). (2003). كتاب العين. تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية.

14-الفيروزآبادي، مجد الدين (817هـ). (2005). القاموس المحيط. تحقيق: مركز تحقيق التراث مؤسسة الرسالة. ط2. بيروت: مؤسسة الرسالة.

15-القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق(456هـ). (1972). العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. ط. 4 بيروت: دار الجيل.

16-المعجم الوسيط (2004)، مجمع اللغة العربية مصر. ط 4. مصر: مكتبة الشروق الدولية.

17-المرتضى، الشريف علي بن الحسين (436هـ). (1954). غرر الفوائد ودرر القلائد. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. ط1، بيروت: دار إحياء الكتب العربية.

18-النويري، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب(733هـ). (2004). نهاية الأرب في فنون الأدب. تحقيق: د. يحيى الشامي. ط1، بيروت: دار الكتب العلمية.

19-اليافي، عبد الكريم (1999). بدائع الحكمة. فصول في علم الجمال وفلسفة الفن. (د. ط) دمشق: دار طالس.

List of Sources and References

-Ibn al-Jawzi, Abu al-Faraj ʿAbd al-Rahmān (1997). Akhbār al-Ẓurāf wa-al-Mutamājinin (Tales of the Wits and the Buffoons). Edited by: Bassām ʿAbd al-Wahhāb al-Jābī. 1st ed. Beirut: Dār Ibn Ḥazm.

-Ibn Manẓūr (n.d.). Lisān al-ʿArab (The Tongue of the Arabs). Verified by: ʿAbd Allāh ʿAlī al-Kabīr. (n.e.) Egypt: Dār al-Maʿārif.

-Abū al-Dunyā, Abū Bakr ibn ʿAbd Allāh ibn Muḥammad (1998). Al-Riqqa wa-al-Bukāʾ (Tenderness and Weeping). Verified by: Muḥammad Khayr Ramaḍān Yūsuf. 3rd ed. Beirut: Dār Ibn Ḥazm.

-Al-Iṣfahānī, Abū al-Faraj (2008). Kitāb al-Aghānī (The Book of Songs). Verified by: Iḥsān ʿAbbās, Ibrāhīm al-Saʿāfīn, Bakr ʿAbbās. 3rd ed. Beirut: Dār Ṣādir.

-Al-Thaʿālibī, Abū Manṣūr (2020). Al-Luṭf wa-al-Laṭāʾif (Graciousness and Subtleties). Verified by: Dr. Maḥmūd al-Jādir. 2nd ed. Baghdad: Dār al-Shuʾūn al-Thaqāfiyya (House of Cultural Affairs).

-Al-Jāḥiẓ (1990). Al-Bukhalāʾ (The Misers). Verified by: Ṭaha al-Ḥājarī. 7th ed. Cairo: Dār al-Maʿārif.

-Al-Jāḥiẓ (1955). Al-Tāj fī Akhlāq al-Mulūk (The Crown Concerning the Morals of Kings). (n.e.). Beirut: Dār al-Fikr.

-Al-Rāzī, Muḥammad ibn Abī Bakr (1986). Mukhtār al-Ṣiḥāḥ (Selected Correct Words). (n.e.) Beirut: Maktabat Lubnān (Library of Lebanon).

-Al-Ziriklī, Khayr al-Dīn (2002). Al-Aʿlām (The Notables/Biographical Dictionary). 15th ed. Beirut: Dār al-ʿIlm li-al-Malāyīn (House of Knowledge for Millions).

-Sallūm, Dāwūd (1967). Shiʿr Naṣīb ibn Rabbāḥ (Poetry of Naṣīb ibn Rabbāḥ). (n.e.). Baghdad: Maṭbaʿat al-Irshād (Al-Irshad Press).

-Lalo, Charles (2010). Principes d'esthétique (Principles of Aesthetics). Translated by: Muṣṭafā Māhir. Revised and Introduced by: Yūsuf Murād. Cairo: The National Center for Translation, Issue 1507.

-Al-ʿAskarī, Abū Hilāl (n.d.). Al-Furūq al-Lughawiyya (Linguistic Differences). Verified by: Muḥammad Ibrāhīm Salīm. (n.e.). Cairo: Dār al-ʿIlm wa-al-Thaqāfa (House of Knowledge and Culture).

-Al-Farāhīdī, Al-Khalīl ibn Aḥmad (2003). Kitāb al-ʿAyn (The Book of the Letter 'Ayn'). Verified by: Dr. ʿAbd al-Ḥamīd Hindāwī. 1st ed. Beirut: Dār al-Kutub al-ʿIlmiyya (Scientific Books House).

-Al-Fīrūzābādī, Majd al-Dīn (2005). Al-Qāmūs al-Muḥīṭ (The Surrounding/Oceanic Dictionary). Verified by: Markaz Taḥqīq al-Turāth Muʾassasat al-Risāla (Heritage Verification Center, Al-Risala Foundation). 2nd ed. Beirut: Muʾassasat al-Risāla (Al-Risala Foundation).

-Al-Qayrawānī, Abū ʿAlī al-Ḥasan ibn Rashīq (1972). Al-ʿUmda fī Maḥāsin al-Shiʿr wa-Ādābih wa-Naqdihi (The Mainstay on the Beauties, Literature, and Critique of Poetry). Verified by: Muḥammad Muḥyī al-Dīn ʿAbd al-Ḥamīd. 4th ed. Beirut: Dār al-Jīl (Generation House).

-Al-Muʿjam al-Wasiṭ (The Intermediate Lexicon) (2004). Majmaʿ al-Lugha al-ʿArabiyya Miṣr (Arabic Language Academy, Egypt). 4th ed.

Egypt: Maktabat al-Shurūq al-Dawliyya (Al-Shorouk International Library).

-Al-Murtaḍā, Al-Sharīf ʿAlī ibn al-Ḥusayn (1954). Ghurar al-Fawāʾid wa-Durar al-Qalāʾid (Pearls of Benefits and Jewels of Necklaces). Verified by: Muḥammad Abū al-Faḍl Ibrāhīm. 1st ed. Beirut: Dār Iḥyāʾ al-Kutub al-ʿArabiyya (House for the Revival of Arab Books).

-Al-Nuwayrī, Shihāb al-Dīn Aḥmad ibn ʿAbd al-Wahhāb (2004). Nihāyat al-Arab fī Funūn al-Adab (The Ultimate Aim in the Arts of Literature). Verified by: Dr. Yaḥyā al-Shāmī. 1st ed. Beirut: Dār al-Kutub al-ʿIlmiyya (Scientific Books House).

-Al-Yāfī, ʿAbd al-Karīm (1999). Badāʾiʿ al-Ḥikma: Fuṣūl fī ʿIlm al-Jamāl wa-Falsafat al-Fann (Wonders of Wisdom: Chapters on Aesthetics and the Philosophy of Art). (n.e.) Damascus: